و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

# وَاصبِر وَما صَبرُكَ إِلّا بِاللَّه

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٥/٤/٢٩هـ

# "وَاصبِر وَما صَبرُكَ إلّا بِاللّه"

**بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم**

إنّ الحمدَ للهِ نحمدُه، ونستعينُه ونستهديه، ونعوذُ باللهِ من شرور أنفسِنا وسيّئاتِ أعمالِنا، منْ يهدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومنْ يضلّه فلا هاديَ له، وأشهدُ ألّا إله إلّا اللهُ، وأنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه.

سنقفُ عندَ آيتين عظيمتين -وكلُّ آيٍ القرآنِ عظيمٌ- بينهما قاسمٌ مُشتَرَكٌ؛ هو "**الصّبرُ**"، يقولُ اللهُ -عزّ وجلّ- في كتابِه العزيزِ:

١- ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(السّجدة: ٢٤).
فاللهُ تعالى يجعلُ من القوم هُداةً ودُعاةً إلى الخير، يأتَمُّ بهمُ النّاسُ، وإنّما نالُوا هذه الدّرجةَ العاليةَ بصبرِهم على أوامرِ اللهِ تعالى، وتركِ زواجرِه، والدّعوةِ إليه، وتَحمُّلِ الأذى في سبيلِه، وكانُوا بآياتِ اللهِ وحججِه يوقنون.

٢- ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩).
فأينما تقرأ في التّاريخِ تجدْ أنّ المسلمِين كانُوا أقلَّ عُدّةً وعتادًا من أعدائِهم؛ فطارقُ بنُ زيادٍ -عندما فتحَ الأندلسَ- دخلَ المعركةَ بـ (١٥٠٠) مقاتلٍ، وكانَ عددُ أعدائِهمُ الإغريق آنذاك (٧٠) ألفَ مقاتلٍ، بينما كانوا في معركة بدرٍ حوالي (٣٠٠) مقاتلٍ مقابلَ أكثرَ من ألفٍ، والأمثلةُ لا تكادُ تنتهي حولَ هذه القاعدة.

## ❖ معنى الصّبر:

دعونا نتكلّمُ عنِ الصّبر ابتداءً مِن معاركنا الشّخصيّة في العبادات كصلاةِ الفجر؛ التي تحتاجُ إلى صبرٍ في تركِ النّوم في الوقت الذي حدّده ربُّنا جلّ في علاه، لا أنْ نجعلَها على أوقاتنا نحن، فكم منّا مَنْ يدمجُها مع استيقاظه للعمل.
أو كصبر النّساء على الحجاب؛ فهو يحتاج إلى صبرٍ حقيقيّ، فليس سهلًا أنْ يُلبَسَ الحجابُ في يومٍ شديدِ الرّطوبة، أو شديدِ الحرارة، وإذا ما قلّبْتَ قراراتك السّليمةَ والصّحيحةَ فستجدُها قائمةً على الصّبر، حتّى الصّبر على ذلك المجتمع الذي قد يكون لك نِدًّا في تنفيذِك تلكَ القرارات، وصبرُنا في علاقاتنا

مع بعضنا كالصّبر بين الإخوة، والأصدقاء، والأقارب... الصّبرِ على أخطائهم، وعدمِ مُقاطعتهم، وغضِّ الطّرف عن زلّاتهم. وهناك الصّبرُ على الفقر، وعلى الأمراض والابتلاءات، وعلى العملِ المُرهِق في سبيل الكسبِ الحلال.

والصّبرُ **لغةً:** الحَبسُ والكفُّ، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(الكهف: ٢٨)؛ أي احبسْ نفسَك معهم.

**واصطلاحًا:** حبسُ النّفسِ عن فعلِ شيءٍ أو تركِه ابتغاءَ وجهِ الله، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾(الرّعد: ٢٢) فالصّبر الذي لا يكون باعثُه وجهَ الله تعالى لا أجرَ فيه، وليس بمحمودٍ.

والصّبر **في الشّرع:** كما عرّفه العلماءُ الخُلُقُ الذي يربّي الإنسانُ نفسَه عليه حتّى لا يفعلَ ما لا يحسُنُ ولا يجمُلُ، وهو منعُ اللّسانِ عنِ التّشكّي، والنّفسِ عنِ الجَزَعِ.

وعرّفوه أيضًا: بأنّه ثباتُ القلب عند مواردِ الاضطراب. كالأبِ الذي يحتضنُ أبناءَه وهم غارقون في دمائهم، ويقول: **"اللّهمّ خذْ مِن دمائنا وأبنائنا حتّى ترضى"**،أو كالمرأةِ التي أُخرِجَتْ مِن تحت الأنقاض وهي تغطّي رأسَها بحجابِها على الرّغم مِن عدم انتباهِ أيّ أحدٍ لرأسها في ذلك الموقف العصيب... فهذا هو الثّبات الحقيقيّ.

إلّا أنّ هناك فرقٌ كبير بين **(صَبَرَ)** و **(صَابَرَ)**؛فإنّ (صَابَرَ) على وزن (فَاعَلَ) ومِن معاني هذا الوزن (المُشارَكة)، ومصدرُ (صَابَرَ): (مُصابَرة)، إذْ لا تكون إلّا بين طرفين، فعندما نقول: صَابَرَ الرّجلُ نِدَّه؛ أي: شاركه في الصّبر، وكأنّهما في سباقٍ مشتركٍ، فطوبى للفائزين.

إنّ الصّبرَ صفةٌ فطريّةٌ ومُكتسَبةٌ معًا؛ جبَلَ الله عليها عباده، والعاقلُ مَنْ يجعلها نهْجَ حياته، والجاهلُ مَن يجعلها تزول، والله تعالى يساعد الإنسان على الصّبر إذا كان مُتصبّرًا، يقول النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام: **"ومَنْ يتصبّرْيُصبّرْهُ الله"**[1]، وهذا معناه أنّ الإنسان باستطاعته اكتسابُ الصّبر، وكما يقول المثل: **"المُزاوَلات تُعطي المَلَكات"**،فالمُزاولاتُ هي الممارسات، والمَلَكة هي المهارةُ أوِ الخُلُق الذي يكتسبه الإنسان، فكلّما زاولَ الإنسانُ شيئًا أصبح ماهرًا مُتمكّنًا فيه، وكذلك الصّبر..

[1] أخرجه البخاري في صحيحه.

فإنْ كان أعداءُ الإسلام أكثرَ في العُدّة والعتاد، فإنّنا -بمشيئةِ الله وفضله- أكثرُ منهم صبرًا، ولا تظنْ أنّ الأعداءَ مرتاحو البال، لأنّهم يتألّمون مِن القتال ومِن صبر المسلمين أشدّ الألم، يقول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النّساء: ١٠٤).

وإنّ الصّبرَ يقلِبُ الصّفاتِ الذميمةَ إلى صفاتٍ حميدةٍ ومحبوبةٍ عند الله تعالى، كالإنسانُ الذي يصبر على ألّا يكذبَ يُكتَبُ عند الله صِدّيقًا، يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "وما يزالُ الرجلُ يصدقُ ويتحرّى الصدقَ، حتى يُكتَبَ عند اللهِ صِدّيقًا"[٢].

أو الإنسانِ الذي يكظمُ غيظَه على الرّغم من استطاعتهِ عدمُ ذلك، يقول النّبي عليه الصّلاة والسلام: "مَنْ كَظَمَ غَيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى رُؤُوسِ الخَلائِقِ يَومَ القِيامَةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحُورِ العِينِ مَا شَاءَ"[٣].

وإذا ما أردنا التّكلّمَ عن أهل غزّةَ الأبيّةِ فإنّنا لنْ نوفيها حقّها، ذلك أنّهم صبروا على الحصار منذ سبعَ عشْرةَ سنةً، وصبروا على هذا العدوان الهمجيّ الأخير، على القصفِ والدماء والجوع والظلم، بل إنّهم دخلُوا مرحلةَ المُصابرَة لمّا اشتدّ عليهم البلاءُ وعَظُمَ ووصل إلى درجةٍ قاسيةٍ من الموت والأمراض، وانعدامٍ كُلّيٍّ لكلّ سُبُل الحياة، نعم! إنّهم يصابرون، فأطفالُهم الخُدّجُ يموتون، وجرحاهُم يموتون واحدًا تلو الآخر بسبب توقّف الأجهزة الطبيّة نتيجةَ انقطاع الكهرباء، فضلًا عنِ انعدام الطّعام، وتحوّلتْ بلدهم كلُّها إلى ساحة معركةٍ طاحنةٍ لا تُبقي ولا تَذَرُ، وتحوّلوا جميعُهم إلى مرابطينَ في سبيل الله تعالى، فقدِ اختاروا الموتَ في أرضهم، والصبرَ على ابتلاءِ الله جلّ جلاله، وإنّ الصّبرَ -واللهِ- طريقٌ عظيمٌ أمرَنا الله تعالى أنْ نسلكَه، يقول عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عِمران: ٢٠٠).

فاسألْ نفسَك عندما تقرأُ هذه الآيةَ العظيمة: هل أنا أحيا صابرًا في حياتي؟ هل مِن شيءٍ صابرتُ عليه؟ كم تساوي معاناتي مع معاناةِ أهلنا في غزّة؟

---

[٢] أخرجه مسلم في صحيحه.

[٣] أخرجه أبو داود في سننه، وحسّنه الألباني لغيره.

## ❖ أنواعُ الصّبرِ ومراتبُه:

### ▪ الصّبرُ نوعان:

**١- صبرٌ بَدَنيٌّ**، وهو أيضًا **نوعان:**

**بدنيٌّ اختياريٌّ:** وهو تعاطي الأعمال الشّاقّة.

**بدنيٌّ اضطراريٌّ:** وهو صبرُ الإنسان على ألمِ الضّرب، لأنّه يُضرَب ولا حيلةَ له إلّا الصّبر.

**٢- صبرٌ نفسيٌّ**، وهو أيضًا **نوعان:**

**نفسيٌّ اختياريٌّ:** وهو صبر النّفس عمّا لا يحسُنُ شرعًا.

**نفسيٌّ اضطراريٌّ:** وهو صبرُ النّفس عن فقْدِ المحبوب الذي حِيلَ بينها وبينه، بحيث لو أنّك لم تصبرْ هذا الصّبر لوقعتَ في الجزعِ المحرّمِ أو في النيّاحِ أو لطمِ الخدود ونحو ذلك.

وإنّ أعلاها درجةً (**الصّبرُ النّفسيّ الاختياريّ**) الذي يختاره صاحبُه، والذي لا شكَّ أنّ حُكمَه واجبٌ.

### ▪ مراتبُ الصّبر:

١- الصّبرُ عن معصيةِ الله تعالى بمطالعةِ الوعيدِ إبقاءً على الإيمان، وحذرًا مِن الحرام، وأحسنُ منها الصّبرُ عن المعصيةِ حياءً.

٢- الصّبرُ على طاعةِ الله تعالى بالمحافظة عليها دوامًا، وبرعايتِها إخلاصًا، وبتحسينِها عِلمًا؛ كالصّبر على الصّلاة والصّيام والجهاد وغيرها من الطّاعات.

٣- الصّبرُ على أقدارِ الله تعالى وابتلاءاتِه؛ كالصّبر على الخوف والجوع والفقر والحرمان.

وأفضلها الصّبرُ عن المعصية؛ كالصّابر عن الزّنا على الرّغم من عدمِ قدرته على الزّواج، يقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿**وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ**﴾ (النّور: ٣٣).

فلْنتعلّمْ مِن سيّدنا محمّدٌ عليه الصّلاة والسّلام، والذي يُعدُّ مدرسةً في الصّبر، فقد أُوذِي وحُبِسَ في شِعْبِ أبي طالب هذا الحبس، ولو أنّه قال: إنّي معكم وعلى دينكم لفكّوا قيدَه، لكنّه حبسَ نفسه اختيارًا.

وسيّدِنا يوسف -عليه السّلام- الذي جمعَ بين مراتب الصّبر النّفسي الاختياري بأكملِها؛ حيث صبرَ على عبادة ربّه من صلاةٍ وذِكرٍ وبقيّة العبادات، وصبرَ على الابتلاء عندما رُمِيَ في الجُبّ، وبلغَ قمّةَ صبره عندما راودتْه امرأةُ العزيز، فصبرَ عن الوقوعِ في الزّنا، وصبّر نفسَه اختيارًا للسّجن ظُلمًا، على الرّغم من كلِّ الإغراءات التي تعرّض لها، إلّا أنّه أبى إلّا أنْ يبتغيَ وجه ربّه عزّ وجلّ.
وسّيدِنا أيّوب -عليه السّلام- الذي صبرَ على مرضه الجسديّ سبعَ عشْرةَ سنةً -وقيل غيرَ ذلك- حتّى تعفّنَ جسدُه، ونبذَه النّاس، ولم يبقَ عنده إلّا اثنان، وشكّوا في أمره بأنّه أذنبَ ذنبًا فعُوقِبَ بهذا المرض، إلّا أنّه قابلَ ابتلاءَ ربّه بالرّضا والحمد، ومع ذلك لم يَقُلِ الله تعالى لمحمّدٍ -عليه الصّلاة والسّلام- اصبرْ صبرَ أيّوبٍ، بل قال: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ**﴾(الأحقاف: ٣٥).

فمن أعظم الصّبر، الصّبرُ على الدّعوة في سبيل الله تعالى، وأولو العزم هم: نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمّدٌ عليهمُ الصّلاة والسّلام.

- **أنواعُ الصّبرِ عند الإمامِ ابنِ القيّم رحمه الله**:

١- **صبرٌ لله؛** وهو أن يكونَ الباعثُ له محبةُ الله تعالى، وإرادةُ وجهه، والتّقرُّب إليه، لا لإظهاره قوّةَ النّفس، واستحمادِ الخلق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا**﴾(الإنسان: ٩).

فالإنسانُ مُطالبٌ بالسّعي إلى الله تعالى، وذلك عن طريق الصّبر، والتّقرّب إليه سبحانه وتعالى، عندها سيكرمهُ، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ، قَالَ: "**إِذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**"[٤].

[٤] أخرجه البخاري في صحيحه.

٢- **صبرٌ بالله؛** أي أنّ الإنسانَ لا يمكن أنْ يصبرَ إلّا أن يُصبِّرَه الله عزّ وجلّ.

٣- **صبرٌ مع الله؛** وهو دورانُ العبدِ مع مرادِ الله الدّيني منه، ومع أحكامه الدّينية، صابرًا نفسَه معها، سائرًا بسيرها، مقيمًا بإقامتها، متوجّهًا معها أينما توجّهتْ ركائبُها، نازلًا معها أينما استقلّتْ مضاربُها، وله معنًى آخر هو أن يجعلَ الإنسانُ نفسَه وقفًا لأوامرِ الله، وهذا من أشدّ أنواع الصّبر وأصعبِها، وهو صبرُ الصّدّيقين.

ومثال ذلك: الصّبرُ على الصّلاة؛ هذه العبادةُ اليوميّةُ التي يجب أن تؤدّى بخشوعٍ تامٍّ، ذلك أنّ هناك عذابًا شديدًا للمصلّين الذين عن صلاتهم لاهون، لا يقيمونها على وجهها الصّحيح ولا يؤدّونها على وقتِها، فهؤلاء يتظاهرون بأعمالِ الخير مراءاةً للنّاس، كما قال عزّ وجلّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (الماعون: ٤-٥).

فما بالُك أخي -المسلم- بالذين لا يُصلّون أبدًا جحودًا، فهؤلاء لا يمتّونَ للإسلام بصلةٍ، كما قال عليه الصّلاة والسّلام: "العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ"[٥].

ومِن أمثلة الصّبر مع الله -أيضًا- الصّبرُ على النِّعَم؛ فالصبرُ لا يكون في الضّرّاء فقط، وإنّما في السّرّاء أيضًا، فقد يفتح الله تعالى أبوابَ الدّنيا على العبد ليرى كيف يتصرّف بها، فإنْ كان ممّن يظلِمُ فيها فسيمُدُّ الله تعالى له استدراجًا، ليأخذَه فجأةً، يقول الحقُّ جل وعلا: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾(الأنعام: ٤٤).

وقال أحدُ السّلف: ابتُلينا في الضّراء وصبرنا، وابتُلينا في السّرّاء فلم نصبرْ. وكان الصّحابة -رِضوانُ الله عليهم- بعد موت النّبي -عليه الصّلاة والسّلام- يخافون أنْ يكونوا مِن المُتنافِسين على الدّنيا، فها هو عبدُالرّحمن بن عوفٍ -رضي الله عنه- لمّا جِيءَ له بصَحْفَة طعامٍ [أي: إناء]، وماءٍ باردٍ، بكى وتذكّرَ أيّامه مع النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، فقال: **"نخشى أن نكونَ ممّن عُجِّلَتْ لهم حسناتُهم في الدّنيا"**، ذلك أنّ ابن عوفٍ -رضي الله عنه- كان يعي تمامًا أنّ الإنسانَ سيُسألُ عنِ أبسطِ أنواعِ النّعيم.
يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (التّكاثر: ٨).

ويروى أنّ أحدَ الصّالحين كان لديه رقعةٌ يضعُها في جيبِ ثوبه، كي يتذكّرَ أنْ يقرأها كلّما أدخلَ يدَه في جيبه، وكان قد كُتِبَ فيها قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾(الطّور: ٨٤).

[٥] أخرجه التّرمذي في سننه، وصحّحه الألباني.

وفي هذه الآيةِ شيءٌ يشبه البلسمَ الشّافي، وفيها يقينٌ ورِضًى مُنقطِعُ النّظير، ذلك أنّ حُكم الله تعالى ماضٍ في الكون، سواءٌ في الشدّة أو في الرّخاء، فهل بعد هذا الأمانِ أمانٌ؟
فأنتَ في عناية ربّك الرّحمن الرّحيم الذي يحفظُك بعينه التي لا تنام، وهنا أتذكّر البيت الشعريّ الجميل:

**وإذا العنايةُ لاحظتْكَ عيونُها نَمْ فالمخاوفُ كلُّهُنَّ أمانُ**

- وهناك شيءٌ مُهمٌّ متعلّقٌ بالصّبر لا يمكنُ أنْ نغفلَ عنه، هو أنّ الإنسانَ قد يكون قويًّا في جوانبَ، وضعيفًا في أخرى، وهذا من الابتلاء أيضًا، فكلُّ إنسانٍ يُبتلَى بطريقةٍ مختلفةٍ عن الآخر، فهناك أناسٌ - مثلًا- تسهُلُ عليهم كلُّ أنواع الطّاعات مِن صلاةٍ وصيامٍ وتلاوةٍ للقرآن الكريم... لكنْ بنفس الوقت تجدهم مشّاؤون بالنّميمة، مُقترِفون للغيبة، وأناسٌ آخرون يستطيعون السّيطرةَ على ألسنتهم، لكنّهم كُسالى عند أداءِ الطّاعات... وكِلا الطّرفين -في الحقيقة- على خطأٍ، فيوصفُ الصّبر كعلاجٍ ناجعٍ لهذا الحال؛ فعلى الإنسان أنْ يُصبّرَ نفسَه على الطّاعات، ويَصبِر عنِ المكروهات، وإلّا فكيف يقابِلُ تاركُ الصّلاة ربَّه بعد الموت؟
وبأيّ وجهٍ سيُقابل الطّعّانُ خصومَه يومَ العرض؟

- إنّ الصّبر عنِ الذّنب المُشتهَى أشدُّ وأصعبُ وأعظمُ من الصّبرِ عنِ الذّنب غيرِ المُشتهَى، فصبرُ الشّابّ عنِ الزنا أعظمُ من صبر الرّجل الكبير، وصبرُ المرء عن شربِ الخمر في بيئةٍ يكون فيها شربُه كالماء، أعظمُ من صبره عنه في بيئةٍ يندرُ وجودُ الخمر فيها، وصبرُ غنيِّ المال عن شراءِ المحرّمات أعظمُ من صبرِ العاجز عن شرائِها... فهذه المواقفُ التي يُمتَحَنُ فيها إيمانُ الإنسان؛ عندما يكون الذّنب متوافرًا يقع فيه القاصي والدّاني، فتستعصم ولا تميل مع الرّيح، وتتمسّك بالصّبر، فانتظرْ الأجرَ مِن عند الله الكريم.

- وأخبرَنا النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم، بما سيكون في آخرِ الزّمان مِن قلّةِ الدّين، كما أخبرَنا بأجرِ المُتمسّك بدينه في هذه الأزمان حَثًّا لنا على الصّبر مع رجاءِ الأجر من الله تعالى، ويشير رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- إلى أيامٍ لا طريقَ للنّجاةِ منها إلّا الصّبر، حيث سيكون أجرُ الصّابر كأجرِ خمسينَ شهيدًا من شهداء الصّحابة، قال النّبي صلّى الله عليه وسلّم: **"إنّ من ورائكم أيامَ الصّبر، للمُتمسّك أجرُ خمسينَ شهيدًا، فقال عمر: يا رسول الله! منّا أو منهم؟ قال: منكم"**[٦].

[٦] أخرجه الطّبراني في المعجم الكبير، وصحّحه الألباني.

وكلُّ هذا الصّبر مجموعٌ في حديث أبي هريرةَ عن النبي عليه الصّلاة والسّلام: "سبعةٌ يظلّهم اللهُ في ظلّه يوم لا ظِلّ إلّا ظِلّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله تعالى، ورجلٌ قلبه مُعلّقٌ في المساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخافُ الله، ورجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شِماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه"[٧]، فهؤلاء كلُّهم يجمعهم الصّبر (النّفسي الاختياري)، ومِن المهمّ -أخي في الله- أنْ تكونَ ذروةُ إيمانك في شبابك، لا بعد اختفاءِ الجمال، ووهنِ الجسد، على الرّغم مِن أنّ بابَ التّوبة والتّقرّب إلى الله مفتوحٌ في كلّ الأوقات، إلّا أنّ مقياسَ الدّرجات قد يختلف.

## ❖ مراتبُ الصّابرين:

- يقول الإمام أحمد رحمه الله: عظَّمَ الله تعالى أمرَ الصّبر في القرآن جدًّا حينما قال عزّ وجلّ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(النّحل: ١٢٧).

ونهى جلّ جلاله عن ضدّه، وهو الجزع أو السّخط، فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(آل عِمران: ١٣٩).

- وقد أخبرَنا الله عزّ وجلّ أنّ الصّابرَ يُؤتَى أجره مرتين: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا..﴾(القصص: ٥٤).

- ويقول الله عزّ وجلّ في المرتبة الأعلى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزُّمَر: ١٠).

- وجاء في أجرِ الصّيام أنّ الصبرَ على الصّيام من العبادات، فالصّائمُ أجره غيرُ محدود، بل يغرِف منه غرفًا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم: "مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ بَاعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا"[٨].

فتخيّل أجرَ صيام يومٍ واحدٍ فقط!

---

[٧] أخرجه البخاري في صحيحه.

[٨] أخرجه النّسائي في سننه، وصحّحه الألباني.

- إنّ مِن صفة الصابرين -كما علّمَنا الله- أنهم إذا أصابهم شيءٌ يكرهونه قالوا: إنّا عبيدٌ مملوكون لله، مُدبَّرون بأمره وتصريفه، يفعل بنا ما يشاء، وإنّا إليه راجعون بعد الموت، ثم بالبعث للحساب والجزاء، فهؤلاء جمع الله تعالى لهم ثلاثة أمورٍ لم تجتمعْ لغيرهم: لهم ثناءٌ من ربهم في الملأ الأعلى، ولهم رحمةٌ عظيمةٌ منه سبحانه، وهدايةٌ إلى الرشاد، يقول الله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَـٰبَتهُم مُّصِيبَة قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُولَـٰئِكَ عَلَيهِم صَلَوٰت مِّن رَّبِّهِم وَرَحمَة وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلمُهتَدُونَ﴾(البقرة:١٥٦-١٥٧).
- ويقول الله عز وجل:﴿وَجَعَلنَا مِنهُم أَئِمَّة يَهدُونَ بِأَمرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾(السّجدة: ٢٤)

وهذا أجر الذين صبروا، ولذلك قال ابن تيمية -رحمه الله- عن هذه الآية: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

- ويأمر الله عز وجل بالاستعانة بالصبر والصلاة في كل الأمور: بالصبر على النوائب والمصائب، وترك المعاصي والذنوب، والصبر على الطاعات والقربات، والصلاة التي تطمئنّ بها النفس، وتنهى عن الفحشاء والمنكر، فإنّ الله تعالى مع الصابرين بعونه وتوفيقه وتسديده، وفي الآية: إثباتُ معيّة الله تعالى الخاصّة بالمؤمنين، يقول الله عز وجل:﴿ٱستَعِينُوا بِٱلصَّبرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(البقرة: ١٥٣).

فإذا كان الله معك فمَن عليك؟

وقال الله عز وجل: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأتُوكُم مِّن فَورِهِم هَـٰذَا يُمدِدكُم رَبُّكُم بِخَمسَةِ ءَالَـٰف مِّنَ ٱلمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (آل عِمران: ١٢٥).

فيأتي مددُ الله تعالى بالملائكة بعد تحقيقِ أوّلِ الشّروط، وهو الصّبر، ثمّ تقوى الله، وتمضي أقدار الله، وتأتي الملائكةُ من فورهم من كلّ حدبٍ وصوب، بعد أنْ بلغتِ القلوبُ الحناجرَ، واجتمعتْ عليهم الأممُ كلُّها، لكنْ هل جاء نصرُ الله من أوّلِ لحظة؟ لا! لأنّ الله عزّ وجلّ يريد أنْ يمحِّصَ المؤمنين، وليميزَ الخبيث من الطيّب، فإيّاك أنْ تحزنَ مهما آلمَك تأخّرُ النّصر فأنت تجهلُ حكمةَ الله العليم الحكيم، فالشّهداءُ أحياءٌ عند ربّهم، والجرحى سبقتْهم أعضاؤُهم إلى الجنّة، ومن على الأرض يردّدون التّكبيرات ويتلون القرآن، ولو أرادَ الله عزّ وجلّ أن ينصرَ أهلَ غزّة لنصرَهم من أوّلِ لحظةٍ، لكنْ ليتّخذَ منهم شهداء، وليمحصَ الذين آمنوا.

لذلك؛ عندما يدخل أهلُ الجنّة الجنةَ -نسأل الله أن نكونَ منهم- تستقبلُهم الملائكةُ، وتُسلّمُ عليهم، وتقول لهم: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيكُم بِمَا صَبَرتُمۚ فَنِعمَ عُقبَى ٱلدَّارِ﴾(الرّعد: ٢٥)، فهذا جزاءُ اتخاذِهم القرارَ السّليم، قرارَ الخوف من الله تعالى امتثالًا وتعظيمًا، وبالتّالي لن يجمعَ الله تعالى عليهم يوم القيامة

خوفَين، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "وعزّتي لا أجمعُ على عبدِي خوفين وأمنين: إذا خافَني في الدّنيا أمّنتُه يومَ القيامة، وإذا أَمِنني في الدّنيا أخفتُه في الآخرة"[٩].

- ونذكر قصة قارون عندما خرج على قومه في أُبّهتِه وزينتِه، يريدُ بذلك إظهارَ عظَمته وكثرة أمواله، فحين رآه الذين يريدون زينةَ الحياة الدّنيا قالوا: **"يا ليت لنا مثل ما أُعطِي قارونُ من المال والزّينة والجاه"**، فردَّ عليهمُ الذين أُوتوا العلمَ بالله تعالى وشرعه: **"ويلَكم اتّقوا اللهَ وأطيعوه، ثوابُ الله تعالى لمن آمنَ به وبرسله، وعملَ الأعمالَ الصّالحة، خيرٌ مما أوتي قارون"**، ولا يتقبّلُ هذه النّصيحةَ ويوفَّقُ إليها ويعملُ بها إلّا من جاهدَ نفسَه، وصبرَ على طاعة ربّه، فاجتنبَ معاصيه، يقول جلّ جلاله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا يَـٰلَيتَ لَنَا مِثلَ مَا أُوتِىَ قَـٰرُونُ (٧٩) وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلعِلمَ وَيلَكُم ثَوَابُ ٱللَّهِ خَير لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَا إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ﴾(القَصص: ٧٩-٨٠).

- وقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَتُبلَوُنَّ فِى أَموَٰلِكُم وَأَنفُسِكُم وَلَتَسمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلكِتَـٰبَ مِن قَبلِكُم وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشرَكُوا أَذى كَثِيراۚ وَإِن تَصبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِن عَزمِ ٱلأُمُورِ﴾(آل عِمران: ١٨٦).

فلاحظ -أخي المسلم- أنّ كلّ الكيدِ والمكرِ الكُبّار من أهلِ الكتاب والمشركين الذين تكتّلوا على الإسلام والمسلمين كان مصيره الفشل، وكلُّ ما نشهده اليوم من مكرٍ سيؤول إلى فشلٍ إنْ صبرتَ بدءًا من معاركك الشّخصية، ووصولًا إلى ثباتِك على مراد الله تعالى، وانتهاءً بالمعارك العِظام.

- وإنّ في تذكير الله تعالى لنا لَدلالاتٌ لكلّ صبّارٍ على طاعةِ الله تعالى [صبّار: المبالغ في الصّبر، وهي صيغة مبالغة تفيد تتالي ودوام صبره]، وعن محارمه، وعلى أقداره، شكورٍ قائمٍ بحقوق الله تعالى، يشكر الله على نعمه، وخصّهم بذلك: لأنّهم يعتبرون ولا يغفلون، يقول جلّ وجلاله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(لقمان: ٣١).

فابقَ مُتذكّرًا -أيّها المؤمن- تذكيرَ ربّك جلّ جلاله تربحْ في الدّنيا وفي الآخرة.

[٩] اخرجه ابن حبّان في صحيحه، وقال الألباني: حسنٌ صحيح.

كانت هذه إلماحةٌ عامّةٌ عن الصّبر والصّابرين، أسألُ اللهَ تعالى أنْ يجعلَني وإيّاكم من الصّابرين، وأسألُ اللهَ أنْ يجعلَ خيرَ أيّامِنا خواتمَها ويومَ لقياه.

والحمدُ للهِ ربّ العالمين، والصّلاةُ والسّلامُ على سيّد المرسلين، سيّدنا ونبينا مُحَمّدٍ، وعلى آلهِ وصحبِه أجمعينَ.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها